الدرس ٣+٤ : مهام التداولية وصلتها بالبلاغة العربية:

د باديس لهويمل... قسم الآداب واللغة العربية جامعة محمد خيضر بسكرة.

الدرس ٣ – مهام التّداولية: تتلخص مهام التداولية في مجموعة عناصر تتمثل في:- دراسة اللّغة أثناء التّلفظ بها في السّياقات والمقامات المختلفة،«فالتّلفظ هو النّشاط الّرئيسي الذي يمنح استعمال اللّغة طابعها التّداولي»[١]،وذلك لكونه ينتقل باللغة من وجود بالقوّة في ذهن صاحبها إلى وجود بالفعل من خلال الممارسة الفعلية، وعلى أساس هذه المُمارسة يتحدّد القصد والغرض من الكلام، فالتّداولية، إذن، تدرس اللّغة بعدّها« كلاما محدّدا صادرا من متكلّم محدّد، وموجّها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرضي تواصلي محدد»[٢]، بمعنى أنّ الدّرس التّداولي يسعى إلى دراسة المنجز اللّغوي في إطار التّواصل وليس بمعزل عنه، ومعرفة مدى تأثير السّياقات الاجتماعية في نظام الخطاب، يقول "فان دايك"(van Dik):« والفكرة الأساسية في التّداولية هي أنّنا عندما نكون في حالة التكلم في بعض السياقات فنحن نقوم أيضا بإنجاز بعض الأفعال المجتمعية وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال».[٣]

ويرى فان دايك أنّ من مهام التّداولية كذلك، دراسة شروط نجاح العبارات وصياغة شروط ملاءمة الفعل لإنجاز العبارة، ومدى ملاءمة كل ذلك لبنية الخطاب ونظامه يقول:« إنّ أحد مهام التّداولية أن تتيح صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، وبيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل الإنجاز الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، وبهذا الاعتبار فإنّ المهمة الثانية، تقوم في صياغة مبادئ، تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام المتداخل الإنجاز الذي ينبغي أن يستوفي في إنجاز العبارة حتى تصبح ناجحة، والمهمّة الثالثة: أنّه لما كانت معطيات التجربة متاحة

---

[١] عبد الهادي بن ظافر الشّهيري: استراتيجيّات الخطاب، ص٢٧.

[٢] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص٢٦.

[٣] فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتّداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشّرق، المغرب،(دط)، ٢٠٠٠، ص٢٩٢.

بأوسع ما تكون، في صورة العبارة فقط، فيجب أن يكون من الواضح في التداولية، كيف تترابط شروط نجاح العبارة كفعل إنجازي، وكمبادئ فعل مشترك الإنجاز التّواصلي مع بنية الخطاب وتأويله».[١]

فالتّداولية تُتيح للمتكلّم وتضمن له نجاح إنجاز العبارات اللغوية،حيث تعالج أسباب فشل الدّراسات البنيوية الصرف للملفوظات، بمراعاة سياقات ورود العبارات اللّغوية واستعمالها، والانفتاح على كلّ ما يحيط بها ومراعاته، كما تتجاوز ذلك لدراسة كيفية إنجاز الأفعال من خلال القول، وبيان أنّ إنجاز الفعل تتداخل فيه جهات مخصوصة وعديدة(اجتماعية،ونفسية،وثقافية،وسياسية)،كما تهتم التداولية بشروط ملاءمة الفعل اللّغوي ومناسبته لتراكيب الكلام المنجز وسياقاته، ومدى مطابقة كل ذلك لبنية الخطاب العامّة.

فالتّداولية عند"فان دايك" تقوم بمهمة دراسة الشروط التي تضمن النّجاح والفعالية والمناسبة لكل استخدام لغوي، وفقا ما يقتضيه ويتطلبه كل موقف تواصلي.

ومن مهام التّداولية كذلك« شرح كيفية جريان العمليّات الاستدلالية في معالجة الملفوظات»[٢] فتدرس كل قواعد الاستدلال التي تمكن المتكلم من إحكام صياغة عباراته اللّغوية وما تحويه من أفعال، بما يستجيب لأغراضه ومقاصده في المقامات التّواصلية المختلفة التي يكون فيها.

وتسعى التداولية كذلك لبيان كيف يمكن للتّواصل الضّمني(غير الحرفي)، أن يكون في الاستعمال أفضل من الّتواصل الحرفي المباشر.[٣]

وتهدف التداولية في محصولها العام، للإجابة عن أسئلة تطرح نفسها بقوّة، ولم تستطع المناهج الكثيرة السّابقة في دراستها للّغة الإجابة عنها، من هذه الأسئلة:

ماذا نصنع حين نتكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط حين نتكلّم؟ من يتكلّم وإلى من يتكلّم؟ ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتّى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ كيف يمكننا قول شيء آخر

---

[١] نفسه، ص٢٥٦.

[٢] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص٢٧.

[٣] ينظر: نفسه؛ وآن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم، ص٧١.

غير ما كنّا نريد قوله؟ هل يمكننا أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟[١]

وإذا كانت هذه أهمّ الأهداف والمهام التي تسعى التّداولية لمعالجتها ودراستها، ففيم تتمثّل أهميّة اللسانيات التداولية بالنسبة للمعالجة اللّغوية بعامة؟.

٥- **أهمية اللّسانيات التّداولية:** تتجلى أهمية اللسانيات التداولية في دمجها المستويات اللّغوية المختلفة في منظومة واحدة، ودراسة اللغة على أساسها، أثناء الاتّصال اللساني (دراسة اللّغة قيد الاستعمال)، فتجعل المتلفّظ بالخطاب(المرسل) يرتبط بالمقام، فيتنبأ بما يستلزمه الموقف، ليراعيه أثناء إنجاز خطابه، وبذلك« يغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها الخطاب في سياق التلفظ»[٢]

وهذا ما يجعل المتلفظ بالخطاب هو المتحكم في المعنى لا اللغة نفسها، وبذلك يستطيع ضمان حصول عملية الفهم والإفهام، حيث يوظّف مستويات اللغة بما يستجيب لقصده، متكئا في ذلك على السّياق، بعدّه مؤثرا مهمّا في نظام الخطاب المنجز، وهذا ما أهملته الدراسات البنوية الصّورية.

فاللّسانيات التّداولية تهتم بدراسة المعنى اللّغوي أثناء الاستعمال، ولذلك وسمت بـ:(لسانيات الاستعمال اللّغوي)، وهذا ما يجعلها أكثر دقّة وضبطا في معالجتها للّغة وبالتّالي، فإنّ«قدرة التّداولية على التدخل في إثراء معاني الكلام والذّهاب في تأويل المسكوت عنه[٣]، هي من الغنى والسّعة، ما يثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللغة البسيطة تحتملها ولا قادرة على تمثُّلها»[٤].

---

[١] ينظر: فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص١١.

[٢] عبد القادر بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب، ص٢٢، ٢٣.

[٣] المسكوت عنه عند الباحث عبد الملك مرتاض، هوّ ترجمة وضعها للمصطلح (illocutoire)، حيث نجده يترجم أفعال الكلام عند أوستين بـ:(الفعل الصّيغي Act locutoire، والفعل المسكوت عنه Act illocutoire، وفعل الصيغة المشبعة (Act perlocutoir)، ينظر: عبد الملك مرتاض: "تداولية اللغة بين الدلاليّة والسياق"، مجلّة اللسانيّات، مركز البحوث العلميّة والتّقنيّة لترقية اللغة العربية،الجزائر، العدد١٠، ٢٠٠٥، ص٧٣.

[٤] نفسه ص٦٥.

كما تتبدى أهمية اللّسانيات التداولية في محاولتها للإجابة عن الأسئلة العديدة التي مثّلت إشكاليّات جوهرية، أثناء معالجة النصوص المختلفة.

ثمّ إنّ اتّساع مجال البحث في التّداولية، نتيجة تعدد المشارب التي تمتحّ منها، جعلها درسا لغويا غزيرا وحيويا، يمدّ الدراسات اللّغوية والمعرفيّة بعدد من الأفكار والمفاهيم والرؤى الجديدة، التي يستضيء بها الباحثون في دارساتهم، ويصِلون من خلالها إلى نتائج قيّمة ما كانت لتبرز إلاّ في ضوء اللّسانيات التّداولية، ومناهج دراستها للمعنى وهو ما سنحاول استثماره في دراستنا لمفتاح العلوم.

فالتّداولية إذن« مشروع شاسع في اللّسانيات النّصية تهتم بالخطاب ومناحي النّصيّة فيه نحو المحادثة، المحاججة، التّضمين، ولدراسة التّواصل بشكل عام، بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ، إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد، إلى ما يمكن أن تُنشئه من تأثيرات في السّامع وعناصر السيّاق».[1]

كما تظهر أهمّية اللّسانيّات التّداولية في تجاوز النّظر اللغوي فيها مستوى الجملة إلى النّص، والمعطيات السّياقية والمقاميّة التي جعلته يرد بتلك الصّورة، ضمانا للفهم والإفهام.

وبهذا الطّرح الذي تقدّمه اللسانيات التداولية، يظهر أنّها قد تكون مدخلا مناسبا لدراسة التّراث البلاغي العربي، لما توفّره من آليات في الكشف عن المعنى ومكنوناته.

فإلى أيّ مدى تستجيب البلاغة العربية للطّرح التداولي؟

[1] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص١٣٥.

الدرس ٤: التداولية والبلاغة العربية أية صلة يمكن أن تنشأ؟

II البلاغة العربيـة:

يرتبط مصطلح البلاغة عند أهل اللغة، بالدّلالة على حسن الكلام مع فصاحته وأدائه للغاية المرادة منه (القصد)، فهي مأخوذة من قولنا: بلغ الشّيء منتهاه وأدرك أقصاه.

فالبليغ من النّاس من يصنع من كلامه، تعبيرا عمّا في صدره فيبلغ به غايته من مُتّلقيه بأيسر طريق، وأحسن تعبير[١]، وإذا عجنا إلى المعاجم اللغوية نجد المعاني نفسها حيث يدور أصل المادة (بلغ) على وصول الشيء إلى غايته ونهايته تقول:« بلغ الشيء يبلغ بلوغا وصل وانتهى وأبلغه هو إبلاغا، وبلّغه تبليغا(...)وتبلّغ الشيء وصل إلى مراده»[٢]

وقد أشار أبو هلال العسكري إلى أصلها اللّغوي، فرأى أنّ البلاغة سمّيت بلاغة لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السّامع فيفهمه[٣].وهذا الأصل اللّغوي تستند إليه كل الكتب البلاغية الحديثة في تحديد معنى البلاغة، فقولنا:« أبلغت الشيء إبلاغا وبلاغا، وبلّغته تبليغا، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته»[٤]

فنلاحظ أنّ معنى البلاغة بصفة عامة، ينهض على مراعاة طرفين اثنين:

الأول: هو المتلفّظ بالخطاب البليغ، ويجب أن تتوفر فيه صفات معيّنة حتى يتمكّن من التأثير في مخاطبه وبلوغ المبلغ الذي يريد منه، والطّرف الآخر هو المتلقّي للخطاب المبثوث من قبل المخاطب، في شكل رسالة بليغة وسليمة حتى تحدث الأثر المطلوب، مما يعني، أنّ البلاغة تقوم على مبدأ الاتّصال فتبحث في كيفية استخدام اللغة بطريقة سليمة تضمن

---

[١] ينظر: عبد الملك مرتاض: "مقدمة في نظرية البلاغة متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها"، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة العدد٢٨، المجلد:٢٠٠٩،١١،ص٢١٧.

[٢] ابن منظور: لسان العرب(مادة "بلغ")، ص٣٤٥، ٣٤٦.

[٣] ينظر: أبو هلال العسكري: الصّناعتين ' الكتابة والشعر'، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، لبنان، دط، ١٩٨٦م، ص٦.

[٤] عبد الرحمان حسن حنبكة الميدان: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، وصور من تطبيقاتها،الجزء١، دار القلم، دمشق، الدار الشامية ، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٢٨.

وصول قصد المتكلّم ومراده إلى مخاطبه والتأثير فيه من خلال مراعاة حاله أثناء الكلام بما يضمن نجاعة الخطاب في النهاية.

ولذلك نجد الخطيب القزويني يعرّف بلاغة الكلام بكونها «مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»[١] إذ على البليغ مراعاة طبيعة من يسوق كلامه إليه والظّرف المحيط به وجَوَّه النفسي.

وأول ما تتصرف إليه البلاغة هو "الإبلاغ"، فتعالج كيفية التأثير في الآخر وإقناعه وبيان المقاصد التي يهدف الباحث إلى تحقيقها، وهذا يعدّ من صميم البحث التداولي، حيث يعالج درجات التّفاعل الاتصالي بين المخاطِب والمخاطَب وشدّة التّأثير وقوته، التي تتم بالأفعال الكلامية الموظّفة في الخطاب، والأدوات المختلفة (أدوات التوكيد،النفي،التّعريف التّنغيم،..) وكذا تحديد سمات الخطاب الناجع (الكلام البليغ).

فواضح أن للبلاغة وشائج قربى مع نظريّة الاتّصال واللّسانيات التّداولية، فإذا كانت هذه الأخيرة، في أوجز تعريفاتها «هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللغة حين الاستعمال فإن البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها»[٢].

فالبلاغة تنطلق من المتكلّم وقصده من كلامه، وما يجب أن يتوفّر فيه من شروط حتى يكون بليغا، لتتّجه نحو المستمع باعتباره المقصود من الخطاب، فتراعي مقتضى حاله إضافة لعنايتها بالرّسالة في حدّ ذاتها فتضع لها شروطا لكي تصير خطابا بليغا ناجحا يختلف عن خطاب العامّة، يقول السكاكي:« البلاغة هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التّشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها،أعني البلاغة، طرفان: أعلى وأسفل...وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر»[٣].

---

[١] الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص١١.

[٢] خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، ص١٥٤.

[٣] مفتاح العلوم، ص٥٢٦.

وقد استعان السّكاكي في تعريفه للبلاغة، بالمنطق كي يصوغ ألفاظه بدقّة وإحكام فنجده يقوم على جملة من العناصر، تحمل مظاهر وسمات تؤكّد البعد التّداولي للبلاغة العربية:

أولا: أنّ المتكلّم يجب أن يبلغ في استعماله الكلام الحدّ الذي يمَكِّنه من توفيه تراكيب الكلام حقّها[١]، فيكون فصيحا، وملتزما بما ثبت في متن اللغة من قواعد النّحو والصّرف والدّلالة والمعجم، ويختار الفصيح من مفردات اللغة وجملها،(صحة اللغة وصوابها) ومحترزا عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وعدم التّعقيد في أداء المعاني، وهي جوانب تُعنى بها حديثا اللّسانيات التّداولية، من خلال دراسة اللّغة في سياقات استعمالها تجنبا لتعقيد الألفاظ والمعاني إذا أخذت منعزلة عن سياقاتها ، وضمانا لقوّة التأثير في السّامع.

فللمتكلم إذن دور بارز سواء في البلاغة العربية أم في اللسانيات التّداولية بعدِّه منتج الخطاب والمتلفظ به[٢]، فالمتكلّم أساس فهم المعنى وتحديد الدّلالات ومقاصدها، لأنه يرتبط بما ينويه من كلامه وما يروم تحقيقه.

ثانيا: يجب على البليغ أن يوظّف في كلامه طائفة من الأدوات البلاغية نحو التشبيه وأنواعه والمجاز والكناية والاستعارة بأنواعها كي يكون كلامه(خطابه) بليغا، في صورة تأسِر المتلقّي وتؤثّر فيه، وبذلك يضمن المتلفّظ بالخطاب تلقّي سامعه لخطابه على النحو الذي يرمي إليه. وهو ما لا يتوفّر عند كل الناس، فيقتصر على طبقة البلغاء منهم فقط وإلاّ صار كل من يبثّ رسالة كلامية بليغا وأديبا، فالبلاغة تعنى بالتّواصل الأدبي الرّفيع وشروط تحقّقه، ثم تحكم له أو عليه.

وتعد هذه الجوانب التي ترتبط بالخطاب: مؤشّرات تداولية مهمّة تعنى بها قضايا التداولية أيّما عناية، على نحو ما نجد في النّظرية الإشارية، والحجاج اللّغوي، وأفعال الكلام لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ، تكشف عن قصد المتكلّم ودرجة شدّته في

---

[١] ينظر: عبد الملك مرتاض: "مقدمة في نظرية البلاغة"، ص٢٣٢.

[٢] ينظر: خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية. ص١٦٣.

أفعاله الخطابية المتضمَّنة في جملة أقواله الصادرة عنه، كما تعدّ مؤشِّرات موجِّهَة للخطاب نحو سامعه، على النّحو الذي يريده المتلفّظ بالخطاب.

ثالثا: أنّ للبلاغة طرفين أعلى وأسفل، وبينهما مراتب لابدّ لها من الاشتمال على الأدوات البلاغية التي أشار إليها السكاكي (التشبيه،والمجاز،والاستعارة،والكناية) وبحسب جودة توظيف هذه الأدوات وشدّة إحكامها بما يتناسب مع مقتضيات الأحوال تعلو البلاغة أو تدنو، فلكل مقام مقال، وأعلى حد تبلغه البلاغة هو الإيجاز.

فالبلاغة بصفة عامّة تعنى بجملة من العناصر تعد من صميم بحث اللسانيات التداولية وتكون في الكلام وفي المتكلم، وهي:[1]

- صحّة اللّغة وصوابها، ويشمل الاهتمام بمستويات اللغة جميعا وعناية بسلامة الألفاظ من العيوب.
- أن يكون المعنى الذي قصده المتكلم مطابقا ومنسجما مع الألفاظ والجمل التي استعملها المتلفّظ في خطابه.
- أن يكون المتكلِّم(المتلفّظ) صادقا في نفسه.

ويمكن أن نضيف إليها معرفة أقدار السّامعين ومنازلهم ومراعاتها أثناء التّلفظ بالخطاب.

واضح أنّ هذه العناصر تشكّل مجالات مشتركة بين البلاغة العربية واللّسانيات التّداولية، بمختلف جوانب دراستها للمعنى، فهذه الأخيرة تعنى كذلك«بالشّروط اللاّزمة لكي تكون الأقوال اللّغوية "مقبولة وناجحة وملائمة" في الموقف التّواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم».[2]

إنّ البلاغة العربيّة واللّسانيات التّداولية يشتركان ويتّفقان كما هو واضح في الاعتماد على اللغة بعدّها أداة لممارسة الفعل على المتلقّي في سياقات مخصوصة ولذلك نجد من المحدثين من يُسوّي بين البلاغة والتداولية مثل "جيفري ليتش"(J. Leitch) حيث يرى أنّ

---

[1] محمد كريم الكوّاز :البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت،لبنان،ط١،٢٠٠٦،ص١٦.

[2] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ ص٣١.

البلاغة «تداوليّة في صميمها، إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسّامع».[1] فكلاهما يهتم بعمليّة التلفّظ والعوامل المتحكمة فيها،قبل الكلام،وأثناء التّلفظ بالخطاب،وإلى غاية إنجازه؛فالبلاغة والتّداولية،علمان يتفقان في« دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلّم في عملية التّواصل وعوامل المقام المؤثّرة في اختياره أدوات معيّنة دون أخرى للتّعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال،وأثر العلاقة بين المتكلّم والمخاطَب على الكلم والمقاصد من الكلام»[2].

وقد تحقق للبلاغة العربية أيضا، هذا التّقارب في المعالجة، مع اللّسانيات التّداولية من خلال دراستها للتّعابير اللّغوية بمستوياتها المختلفة:(صوتية،وصرفية،وتركيبية ودلالية) والبحث في العلاقات القائمة بينها(النظم والتعليق)، وسياقات استعمالها؛ أي أنّها تهتم بكل ما يرتبط باللغة وممارستها، وكأنّها تبحث في نظريّة تواصليّة شاملة لكل عناصر الحدث الكلامي، فالبلاغيون العرب،واللغويون بصفة عامة تركّزت دراساتهم على محاولة وصف ما بين بنية اللغة ووظيفتها من ترابط،« فباعتبار التّراكيب اللّغوية رسائل لتأدية أغراض تواصليّة معيّنة، انصبّت هذه الدّراسات على رصد العلاقة بين كل نمط من أنماط التراكيب والغرض المتوخى تحقيقه، وعلى أساس هذا المبدأ درست وظائف عديدة نحو: التّقييد، التّوكيد التّخصيص.»[3]

فالمبدأ الذي انطلقت منه البلاغة، وجل علوم اللغة العربية، هو مبدأ وظيفي تداولي يقوم على رصد خصائص تراكيب اللغة في علاقتها بمقامات إنجازها من جهة وأغراضها التواصلية التي وضعت لأجلها من جهة أخرى، كما أنّ تلك الوظائف من تقييد وتوكيد وتخصيص،التي درستها البلاغة العربية والنحو العربي، تعدّ وظائف تداولية في صميمها فالتّقييد مثلا وظيفة يسعى المتكلم من ورائها إلى«توضيح قصد المتكلّم والكشف عن

---

[1] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص١٢١.

[2] جيليان براون، جورج يول، تحليل الخطاب،ترجمة وتعليق:محمد لطفي الزّليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية،(دط)،١٩٩٧، ص٣٢(الهامش).

[3] أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص٨٤.

مراده»[1]، من خلال إضافة مكونات لنواة الجملة، نجد أيضا"التوكيد" وظيفة ترد في كلّ إخبار يرمي به المتكلّم تنبيه المخاطب إلى أنّ مضمونه ليس ناتجا عن سهو أو نسيان»[2]فهو إذن وسيلة لتقوية الإخبار وبيان أنّه مقصود فعلا من المتكلّم.

كلّ هذا يجعل البلاغة العربية[3]، بِعدِّها موضوع بحثنا، مصدرا من مصادر التّفكير التّداولي العربي، وأرضية خصبة لمعالجتها بتقريب تداولي يُعيد لها مكانتها بكشف مظاهرها وأبعادها الوظيفية التداولية.

والبلاغة العربية ارتبطت في نشأتها بالنّص القرآني، فلم يكن الوصف اللغوي فيها منصبا على الجملة مجردة من مقامات إنجازها، بقدر ما نظر إلى النّص بعدّه خطابا متكاملا، وهو ما ينطبق على باقي علوم العربية(نحوا،وأصولا،وتفسيرا)، فمادام أنّها تروم وصف وتحليل نصّ القرآن الكريم بغية فهمه، سينتج عن ذلك أنّ«المعطيات المنصب عليها الوصف اللغوي ليست جملا مفردة مجرّدة من مقامات إنجازها، بل إنّها خطاب متكامل متماسك».[4]

كما أن قضية الإعجاز التي تبحثها البلاغة العربيّة، طرحت طرحا نصّيا في مؤلّفات البلاغيين، ومنها "مفتاح العلوم" للسّكاكي، لأنّ الإعجاز يكمن في النص ذاته؛«فالإعجاز مزية النّص، والنّص قوامه الجمل المتعددة المتواصلة بالعلاقات المتشابكة»[5]،فالبلاغة

---

[1] نفسه، ص٨٥.

[2] نفسه.

[3] من أهم مصادر التفكير التداولي في التراث العربي إلى جانب البلاغة نجد: علم النحو، والنقد، والخطابة، والفلسفة وعلم الأصول حيث قدّم علماؤه إسهامات قيمة من خلال ربط البنية بالوظيفة ودراسة عديد الوظائف النحوية والبلاغية تداوليا، ولذلك يقول الباحث محمد سويرتي: «إن النّحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوربيا، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعّة». محمد سويرتي:النحو العربي من المصطلح إلى المفاهيم،تقريب توليدي وأسلوبي وتداولي،أفريقيا الشّرق،المغرب،(دط) ،٢٠٠٧، ص١٤٠.

[4] أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية ص٣٥؛ وينظر: عبد الجليل ناظم: البلاغة والسّلطة في المغرب، دار توبقال للنّشر، الدار البيضاء، ط١،٢٠٠٢، ص١١٧.

[5] عبد الجليل ناظم: البلاغة والسلطة في المغرب، ص١١٧.

تبحث في إعجاز نصّ خالدٍ، وتقوم بوصفه وتفسيره ممّا يعني أنّها تبحث في خطاب متكامل متماسك، وتتجاوز بذلك حدود الجملة، والإشكالية القائمة التي تعزل اللّفظ عن المعنى لتصل إلى توحيد النّظر بينهما من خلال دراسة إعجاز النصّ ككل.

إذن بحث البلاغيّون أثر المعنى ضمن السياق[1]وبالتالي ضمن النص، فاهتموا في سبيل ذلك بجملة من المبادئ والوظائف تعدّ من صميم البحث التداولي حديثا لعلّ من أبرزها:

– دراسة مجالات الترابط بين البنية والوظيفة.

– دراسة اللغة العربية بعدِّها وسيلة للتّواصل والتّعبير عن الأغراض والمعاني فهي ذات قيمة نفعية تعبيرية.

– اعتمادهم مبدأ لكل مقام مقال.

– اهتمامهم بعناصر الخطاب: المتكلّم وقصده، والسّامع وأحواله، والخطاب ونوعيته والظروف المحيطة بكل ذلك.

– دراستهم الأساليب وأغراضها وانتقالها من الدّلالة الحقيقية إلى دلالات أخرى يقتضيها المقام بخاصة وأن اللغة العربية« تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يريد المتكلم تضمينها كلامه كالتّقرير والاستفهام والتّمني والإخبار والنفي والإثبات والطلب والترجي، فكان على طوائف من العلماء العرب ولاسيما البلاغيين الدارسين لعلم المعاني أن يتعرّضوا للقوى

---

[1] يقول الباحث "منذر عياشي"في هذا:«إذا أخذنا كتاب مفتاح العلوم للسّكاكي، فسنرى أنّه قد رتّب أبوابه بما يتناسب ودراسة النّص إن تفسيرا وإن إنتاجا، وقد عالج فيه علاقة اللّفظ بالمعنى، ضمن علاقة أكبر هي علاقة النّص بأجزائه أو بمكوّناته، وغير السّكاكي نهج هذا النّهج أيضا، ويدلّ هذا أنّهم كانوا أصحاب نظرة كلّية وشموليّة يستحيل معها الانطلاق اكتفاء بالفروع دون الأصول وبالجزئيات دون الكلّيات، ولذا نراهم قد أسّسوا جملة من العلوم(كعلم الاستدلال) أو(علم خواص تراكيب الكلام)، وغير ذلك، فكان منها ما يختصّ بلسانيّات النّص، كما كان منها ما يختص بلسانيات الجملة(...) ونستدلّ على هذه الشمولية بالتّعريفات التي استخدموها».منذر عيّاشي:الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨، ص١١٣، ١١٤.

المتضمّنة في القول بغرض تحديد ما يقتضيه حال معين نزولا عند قاعدة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[1].

– دراستهم لمجموعة من الوظائف النحوية: كالتّخصيص، والتّقييد، والتّوكيد، دراسة وظيفية تداولية.

فالبلاغة العربية واللّسانيات التّداولية يتداخلان ويتشابكان في قضايا عديدة تجعل من التّقريب التداولي للتراث البلاغي العربي، منهجا لا يعوزه التّأسيس اللّساني لما بينهما من وشائج قربى، وصلات في مباحثهما.

– **قيمة التقريب التداولي في دراسة العربيّة وتراثها:**

نظرا لما تضمّه اللّسانيات التّداولية من قواعد محدّدة،وإجراءات تحليلية متنوّعة كونها تمتاح من مجالات معرفية عديدة، فتقوم بوصف كل ما كان مظهرا من مظاهر التّواصل والتّفاعل، فإنّ تطبيقها على اللغة العربية كما يقول الباحث "مسعود صحراوي"« سيُسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية التّواصلية، كما نعتقد أنّ استثماره في قراءة الإنتاج العلمي لعلمائها سيُسهم في اكتشاف وتثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجّلاء»[2] وبالتّالي فإنّ التّقريب التّداولي لنصوص التراث سيسهم في إضاءة الجوانب الحيّة منه، وإعادة بعثها من جديد بما يتلاءم مع معطيات الدّرس اللساني الحديث والمعاصر مما يضمن لنا:

أولا: إيجاد مصطلحات علميّة وفنيّة ملائمة، عند ترجمة المصطلحات الغربيّة إلى اللغة العربية فتكون لغتنا متّسقة وموحدة، في مصطلحاتها.

ثانيا: كشف ما توصّل إليه علماؤنا من نتائج تُعين في التّأريخ لتطوّر العلوم اللسانية.

---

[1] ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص٦؛ وينظر: طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعية الكويت،(دط)، ١٩٩٤، ص٢.

[2] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص٦.

ثالثا: إعادة عرض دراسات علمائنا البلاغيين، وغيرهم بلغة معاصرة يمكن من خلالها تقييم أعمالهم بطريقة موضوعية، ثم تمثيل نتائجهم أبحاثهم في نظريات مبتكرة إذا توفّرت الشروط الملائمة.[١]

فما يستفاد من اللّسانيات التّداولية هو أدواتها التي سنحاول أن نستكشف بها نصّا من نصوص البلاغة العربية، "مفتاح العلوم"، والنّظر في مدى قدرته على المثاقفة والحوار مع بعض النظريات اللّسانية المعاصرة، باعتباره كتابا في علوم اللغة(صوت وصرف ونحو ودلالة وبلاغة) مما يُسهم في تحقيق التّقريب التّداولي للمفتاح بصورة جلية، بخاصّة إذا علمنا أنّ« النظرية الثّاوية خلف مختلف العلوم اللغوية،كما يقول أحمد المتوكل، هي نظرية تداولية»[٢] وبالتالي فهي قابلة للقرض والاقتراض مع النّظريات التّداولية الحديثة.

فالتداولية بصفة عامة، تعدّ مصدرا ثريا يمكن له أن يغني التّراث اللّغوي العربي بعامة بأبعاد لسانية ومعرفية مهمّة، تُمكّن من تقويمه بطريقة موضوعية،« فلا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية ما لم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات الثّقافية بأوصاف خاصة، ومنضبط بقواعد محدّدة يؤدي الإخلال بها إلى آفات تضرّ بهذه الممارسة».[٣]

ولذلك فإننا نروم من خلال هذا البحث، معالجة نصوص المفتاح بتقريب تداولي يراعي خصوصيّات الثقافتين الغربيّة والعربيّة، ويحاول استخراج أهم المظاهر التّداوليّة والملامح التي يزخر بها هذا المؤلَّف، لكن بعد تحديد الإطار المعرفي العام للمفتاح،لنكون موضوعيّين في حكمنا على المفتاح بمراعاة سياق تأليفه وإنتاجه،فذلك ممّا يساعدنا في هذه الدّراسة.

---

[١] ينظر: سيد هاشم طالب،الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب،ص:هـ.

[٢] أحمد المتوكل: الوظائف التّداوليّة في اللغة العربيّة،ص١٠.

[٣] طه عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث، ص١٦، ٢٤٣.